مصادر دراسة التاريخ العسكري لايالة الجزائر خلال العهد العثماني 1520ـ1830

بقلم أ/ بوشنافي محمد

يتميز تاريخ ايالة الجزائر في العهد العثماني 1520-1830 بخصائص جعلته أطول العهود من حيث التواصل التاريخي، عرفت الجزائر خلاله سيادة ووحدة ترابية وقوة عسكرية برية وبحرية أرهبت بها القوى الكبرى آنذاك، وخاصة في منطقة البحر المتوسط، مما دفع بهذه الأخيرة إلى العمل جاهدة للتخلص منها وإنهاء وجودها، فكان من نتائج ذلك أن واجهت الايالة الجزائرية طيلة هذا العهد غارات متتابعة .

ولم تقتصر الأخطار التي كانت تهدد الجزائر آنذاك على القوى المسيحية، بل واجهت كذلك أطماعا توسعية على الحدود الشرقية والغربية، وحتى مؤامرات وانتفاضات داخلية.

وأمام تعدد الأخطار الداخلية والخارجية برية وبحرية، اضطرت حكومة الايالة إلى بناء قوة عسكرية بإمكانها حماية البلاد والعباد وصد هذه [illegible]

الهجومات، فكانت هذه القوة في حالة استنفار دائم، مما جعلها تكتسب خبرة قتالية تضاهي بها أكبر القوى آنذاك.

كان من نتائج الأوضاع السابقة أن اصطبغ النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني بطابع عسكري، فأصبح الجيش يهيمن على شؤون الايالة، ووصل الأمر أن أصبح الباشوات يعينون من بين أفراد الجيش وخاصة جيش البر أو الجيش الانكشاري.(1)

دفع هذا الوضع كتاب تلك الفترة إلى تخصيص نصيب من كتاباتهم للحديث عن هذا الجيش، فأولوا اهتماما بالغا للجانب العسكري من تاريخ الايالة، بحيث أن العودة إلى هذه المصادر تمكننا من جمع تفاصيل دقيقة حول حياة هذا الجيش، تنظيمه، دوره، قياداته...

ما تجدر الإشارة إليه في مجال الكتابات التاريخية حول موضوع التنظيم العسكري للايالة الجزائرية، أن المصادر متنوعة ويمكن أن نميز بين الأنواع التالية:

أ –الوثائق الرسمية.

ب–الكتابات العربية.

ج–الكتابات الأجنبية.

أ–الوثائق الرسمية:

تتشكل في معظمها من وثائق الأرشيف المنتشرة داخل الجزائر أو في خارجها، وهي عبارة عن سجلات وأوراق كتبت عليها أوامر أصدرها باشوات الجزائر أو الموظفون السامون للايالة، إلى جانب مراسلات لوكلاء

الجزائر في الخارج حول تجنيد المتطوعين، وهنا نشير بأنه لا يمكن لأي باحث في تاريخ هذه الفترة الاستغناء عن هذه الوثائق، باعتبار أنها تحوي في طياتها مادة خاما، رغم صعوبة استخلاص المعلومات منها لتداخلها. (2)

غير أن ما يلاحظ على هذه الوثائق من حيث الفترة الزمنية، أن معظمها يغطي الفترة الممتدة على طول القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر حتى عام 1830 في حين أنها شبه منعدمة بالنسبة للقرن السادس عشر وقليلة جدا بالنسبة للقرن السابع عشر.

ومما يزيد في أهمية هذه الوثائق تنوع موضوعاتها، فهي تتطرق لجوانب سياسية، عسكرية، اقتصادية واجتماعية. وسنحاول أن نبين أهم الوثائق الموجودة داخل الجزائر دون الخارج، وأهم ما تناولته من معلومات حول الجوانب العسكرية:

1-سجلات المحاكم الشرعية:

تتشكل من عقود شرعية وقضائية، تتمحور حول الملكيات والمعاملات كالبيع والشراء وعقود الزواج والطلاق والميراث والأوقاف والهبة والشفعة...

ونشير في هذا المجال أن كثيرا من الباشوات والجنود كانوا قد أوقفوا ممتلكاتهم من بيوت ودكاكين ومقاهي...للإنفاق على الجنود وصيانة الثكنات والأبراج والحصون، وقد يرجع ذلك إلى استغناء الكثير منهم عن الزواج، فعاشوا حياتهم عزابا و لم يكن لهم ورثة يرثونهم بعد الموت.(3)

2-سجلات البايلك:

تحتوي بدورها على معلومات حول الأملاك المحبوسة ومدا خيلها، إلى جانب معلومات حول التركات ونصيب بيت المال فيها، كما تعطينا تفاصيل حول مصاريف قصر الداي وكبار الضباط والجنود، وتبين لنا أن كثيرا من الجنود كانوا يمارسون التجارة إضافة إلى أجرتهم بغرض زيادة مداخيلهم.

3-وثائق خط همايون:

تتضمن عرائض ومراسلات بين الباب العالي وحكومة ايالة الجزائر، وكان الأستاذ المرحوم أحمد توفيق المدني قد قام بتصوير أكثر من ثلاثة آلاف وثيقة في تركيا واستقدمها إلى الجزائر، وبعد ذلك قام الأستاذ فكري طونا بترجمة قسم كبير منها من اللغة التركية إلى اللغة العربية[4] وما يلاحظ أنها سهلة القراءة خاصة وأنها كتبت بالآلة الراقنة.

أما ما تحتويه من معلومات حول الجوانب العسكرية فنحصرها فيما يلي:

-الانتماءات الاجتماعية للمجندين الذين كانت ترسلهم الدولة العثمانية إلى ايالة الجزائر، بحيث توجد وثيقة تبين أن السلطان العثماني أرسل في إحدى المرات إلى الايالة عددا من المشوشين الذين أحدثوا اضطرابات في إحدى القرى بجزيرة قبرص، وكان غرضه من ذلك -حسب الوثيقة- إصلاحهم ودفعهم إلى الجهاد في سبيل الله. [5]

-طريقة جمع المتطوعين للجيش الجزائري من أراضي الدولة العثمانية، حيث كان يجب على الدايات الحصول على فرمان من السلطان للقيام بهذه العملية،

وكثيرا ما استعملت الدولة العثمانية هذا المنع للضغط على حكومة الايالة الجزائرية، ومثال ذلك إجبار الجـــزائر على قطـــع علاقاقما مع فرنسا بعد حملة نابليون بونابرت على مصر عام 1798، (6)

-طلبات ايالة الجزائر من الباب العالي إمدادها بالأسلحة والعتاد الحربي ،ورد السلطان العثماني على هذه الطلبات، من خلال إصدار فرمان يسهل هذه العملية أو يمنعها.

4- وثائق المكتبة الوطنية – قسم المخطوطات –

وهي تتضمن رسائل وصلت إلى حكام الايالة الجزائرية من الوكلاء – الدائبات- المكلفين بتجنيد المتطوعين من مختلف المناطق العثمانية، إلى جانب رسائل من البايات وقادة الجيوش في أنحاء الايالة، كما تحتوي على رخص عطل للجنود لزيارة أهاليهم، فبدونها يعتبر الجندي هاربا ويكون مُصيره العقاب، إضافة إلى قوانين تتعلق بالنظام الداخلي للجيش أو ما يسمى عهود الأمان. كما تعطينا تفاصيل دقيقة حول كيفية تجنيد المتطوعين وأعدادهم .

ومما يجب ذكره أن الأستاذ خليفة حماش إبراهيم، قام بتنظيم هذه الوثائق في ملفات وأعطى لكل وثيقة ملخصا، ونشر هذا العمل القيم في المجلة التاريخية العربية للدراسات التاريخية. (7)

5-سجلات رواتب الانكشارية:

هي عبارة عن دفاتر ضخمة ذات أهمية بالغة لكتابة التاريخ العسكري لايالة الجزائر، لما تحتويه من معلومات حول أسماء الجنود، رواتبهم، أصولهم، ثكناتهم...وتبقى بحاجة إلى استغلال حيث أنها لم تستغل لحد الآن باستثناء

الدراسة التي أنجزها المستشرق الفرنسي جون دوني j. Deny ونشرها في المجلة الإفريقية Revue Africaine عام 1920. [8]

ب- الكتابات العربيـــة:

يمكن أن نقسّمها إلى كتب ما زالت في شكل مخطوطات وأخرى تم تحقيقها وأصبحت في متناول القراء والباحثين لاستغلال رصيدها في عملية البحث . ولابد أن نشير أن كثيرا منها ذات طابع أدبي، غير أنها تضم بين طياتها نتفا ومعلومات حول التاريخ العسكري للايالة، مما يجعل الاستغناء عنها أمرا مستحيلا. أما طبيعة المعلومات الواردة فيها، فإنها عبارة عن حديث حول جهاد الجزائريين وصدهم للغارات الأوربية، أو حول الأمور السياسة والاضطرابات التي كان يحدثها هذا الجيش بقتله للباشوات أو عزلهم أو تعيين من لا يصلح للحكم.

أما فيما يخص الفترة الزمنية التي تغطيها هذه المصادر، فترجع إلى مطلع القرن السادس عشر مع بداية التواجد العثماني في الجزائر، ويمكن ذكر كتاب غزوات عروج وخير الدين الذي صححه وعلق عليه الأستاذ نور الدين عبد القادر [9] أو كتاب الزهرة النائرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة الذي حققه سليم بابا عمر [10]، أو كتاب سيرة المجاهد خير الدين [11] وكتاب تبر المسبوك في جهاد غزاة الجزائر والملوك وهو باللغة العثمانية، [12] وهذان الكتابان الأخيران هما عبارة عن مخطوطين بقسم المخطوطات في المكتبة الوطنية بالجزائر.

وهناك كتابات تعود إلى القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، ومنها كتاب التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية وهو عبارة عن رجز –قصيدة طويلة– خصصها صاحبها لفتح وهران الأول في عهد الداي محمد بكداش 1707-1710[13]، أو كتاب فتح وهران للجامعي [14] وكتاب الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني [15] وهي تتمحور حول موضوع فتح وهران الثاني في عهد الباي محمد الكبير 1779-1797 .

كما يعتبر كتاب المرآة للسيد حمدان خوجة [16] ومذكرات أحمد شريف الزهار [17] من أهم المصادر لدراسة التاريخ العسكري للايالة الجزائرية وخصوصا في العهود المتأخرة، حيث تعطينا معلومات حول قدوم الجيوش الفرنسية عام 1830 وفشل الجيش الجزائري في صدها، كما تحاول أن تبين أسباب تراجع القوة العسكرية للايالة الجزائرية في هذه الفترة.

وإلى جانب المصادر العربية المحلية، فإن كتب الرحالة العرب الذين زاروا الجزائر تحتوي بدورها على معلومات جد هامة في المجال العسكري، وعلى سبيل المثال كتاب وصف إفريقيا لحسن الوزان –ليون الإفريقي– أو رحلة الدرعي، العياشي... [18].

وكتقييم لهذه المصادر فلا بد من الإشارة إلى ما يلي:

-غلبة الطابع الأدبي والسردي عليها، مما يجعلها مادة خام تستدعي من الباحث تحليلها واستخلاص الحقائق منها.

-قلة المعلومات المتعلقة بالجوانب العسكرية فيها من حيث عدد الجنود، أصولهم، ثكناتهم...باستثناء بعضها ككتاب المرآة لحمدان خوجة.

-اختلفت مواقف أصحابها من الجيش العثماني في الجزائر، فإذا كان البعض يعتبرهم مجاهدين قدموا للدفاع عن الجزائر، فإن البعض الآخر يعتبرهم مجرد جماعة من اللصوص وقطاع الطرق هدفهم جمع الثروة واضطهاد السكان.

-لا ننكر وجود كتابات اهتمت بالجوانب العسكرية للايالة، وحاولت إصلاح حال الجيش خاصة في العهود المتأخرة للايالة، ومنهم المفتي الحنفي محمد بن محمود بن العنابي الذي ألف كتاب السعي المحمود في نظام الجنود، حيث دعا من خلاله إلى الأخذ بنظم الجيوش الأوربية الأكثر تطورا. [19]

ج-الكتابات الأجنبيـــة:

تعتبر من أهم مصادر تاريخ ايالة الجزائر، ويرجع ذلك لكثرتها وتنوع معلوماتها، إلى جانب اختلاف الانتماءات الجغرافية والمهنية لأصحابها، فهي تحتوي على تفاصيل دقيقة ومتنوعة حول التاريخ العسكري للايالة، كتبها أصحابها من خلال مشاهداتهم ومعايشتهم للمجتمع الجزائري وجيشه آنذاك، إلا أنه عند استغلال هذه المصادر لابد من توخي الحذر، إذ أنها تحتوي على الكثير من الدسائس والتشويه، مما يضع الباحث أمام مسؤولية كبيرة، ويضطره ذلك إلى التمحيص والتدقيق فيما جاءت به هذه الكتابات، لأن أصحابها كانوا يحقدون على جيش الايالة، فألصقوا به مجموعة من التهم والأباطيل.

ويتشكل هذا الصنف من الكتاب مما يلي:

1-**الرهبان والقسيسون:** الذين قدموا إلى الجزائر لافتداء الأسرى بها، مع محاولة إظهار ما يعانيه هؤلاء من اضطهاد الجنود لهم، وهنا لابد أن نبين أن هذه المعاناة فيها كثير من المبالغة، فكثير من هؤلاء الأسرى كانوا يعاملون

معاملة إنسانية، حتى أن الكثير منهم أعلنوا إسلامهم وانخرطوا في صفوف الجيش الجزائري سواء الانكشارية أو الرياس وحملوا لقب أعلاج والكثير من هؤلاء استطاعوا الوصول إلى منصب الحاكم الأول للايالة، وبعضهم الآخر تولى مناصب القيادة في الجيش.[20]

2-**الأسرى** : يضم هذا الصنف من الكتاب أولئك الأشخاص الذين سقطوا في قبضة البحرية الجزائرية سواء خلال المعارك البحرية أو أثناء مصادفتهم لسفنهم في أعالي البحار، وأخذوا إلى مدينة الجزائر كأسرى ينتظرون افتداءهم من طرف دولهم، فسجلوا ملاحظاتهم عن داخل الايالة.[21]

3-**قناصلة الدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية:** الذين مكنتهم مناصبهم واحتكاكهم بحكام الايالة من تسجيل ملاحظاتهم، ومنها ما يتعلق بالجيش الانكشاري وطائفة الرياس، ومن هؤلاء قنصل الولايات المتحدة وليم شالر الذي سجل مذكراته عام 1822، وهي تتضمن جزءا مهما حول الجوانب العسكرية للايالة.[22]

4-**الجواسيس والضباط العسكريون:** قدم هؤلاء بغرض الاطلاع على مصادر القوة والضعف داخل جيش الايالة من حيث العدد والعتاد والتحصينات، وكان بعضهم الآخر يعمل في قنصليات الدول الأجنبية، ومن هؤلاء يرد ذكر اسمين، الأول هو الجاسوس بوتان boutin ضابط في الجيش الفرنسي، زار الجزائر عام 1808، ووضع تقريرا مفصلا حول الجيش الجزائري والتحصينات، كما حدد مراكز الضعف للايالة، وللإشارة فإن ضباط الحملة الفرنسية استغلوا هذا التقرير لغزو الجزائر عام 1830 [23]

والشخص الثاني هو الضابط رينودو Renaudot الذي عمل في حرس قنصل فرنسا بالجزائر، وترك بدوره ملاحظات هامة حول القوات الجزائرية البرية والبحرية [24].

أما من حيث الفترة الزمنية التي تغطيها هذه الكتابات فإنها تمتد على طول العهد العثماني، ويمكن أن نذكر بعض مؤلفي هذه الفترة كنماذج:

-هايدو Haedo 1634

-الأب دان Dan 1637

-دارندا Aranda 1640

-دابير Dapper 1686

-بايصونال Payssonnel 1725

-الدكتور شو Shaw 1732

-لوجي دوتاسي Laugier de tassy 1724

-فونتور دي بارادي Venture de paradis 1788

-كيرسي Kercy 1791

-بوتان Boutin 1808

-ديبوا تانفيل Dubois thainville 1809

-شالر Shaler 1822

-سيمون بفايفر Simon pfeiffer 1830

أما فيما يخص المواضيع التي تتناولها هذه الكتابات حول الجوانب العسكرية فتحددها فيما يلي:

1-تجنيد المتطوعين: كيفيته- أصول المجندين – فئاتهم الاجتماعية وأعدادهم.

2-ثكناتهم وأماكن إقامتهم داخل مدينة الجزائر وخارجها في مختلف جهات الايالة.

3-الرتب وكيفية الترقية.

4-هيئتهم وسلاحهم.

5-أساليب القتال المستعملة أثناء المعارك.

6-أجورهم ونشاطاتهم الاقتصادية.

7-أخلاقهم وعلاقاتهم الاجتماعية.

8-نظامهم القضائي.

9-دورهم السياسي والعسكري.

10-العلاقة بين رياس البحر والجيش الانكشاري.

إن تقييما شاملا لكتابات الأجانب عن ايالة الجزائر، يجعلنا نقر بأنها احتوت على معلومات جد هامة حول الجوانب العسكرية، وبالتالي فهي تعتبر مصدرا أساسيا لأي باحث في هذا الميدان، وقد اعتمدت هذه الكتابات على المشاهدة والملاحظة غير أن معظمها ركزت على مدينة الجزائر مهملة باقي أرجاء الايالة، وذلك لأن أصحابها عاشوا في هذه المدينة، إلا أن هذا لا ينفي وجود كتابات حول مناطق عديدة من الايالة.

وإلى جانب ذلك فإن هذه الكتابات لم تعكس واقع المجتمع والبلاد، باعتبار أن هؤلاء لم يعايشوا الأحداث أو يتفاعلوا معها، بل كانوا مجرد متفرجين عليها من بعيد، مكتفين بتسجيل ما يتماشى مع طباعهم الأوربية

ونظرتهم إلى الحياة ودينهم، متجاهلين عادات وتقاليد سكان هذا البلد وتعاليم دينه.

وخلاصة القول، فإن مصادر تاريخ ايالة الجزائر بشكلها العام أو تلك المتعلقة بالجوانب العسكرية متوفرة ومتنوعة، وتبقى الدراسات في هذا المجال قليلة وتحتاج إلى بحث متواصل، علمي وأكاديمي من خلال الوثائق باعتبارها أهم مصدر لدراسة تاريخ تلك المرحلة التي شبهها أحد الكتاب بفترة ما قبل التاريخ لما يكتنفها من غموض.

وتبذل المدرسة التاريخية الجزائرية منذ الاستقلال مجهودات جبارة في هذا المجال بتكوين الطلبة في الدراسات العليا وعقد الملتقيات والأيام الدراسية التي بدأت تؤتي بنتائجها من خلال صدور العديد من الدراسات حول مختلف ميادين الحياة في ايالة الجزائر خلال العهد العثماني.

الهوامش:

1-إن أصل كلمة انكشارية عثماني يني تشاري وتعني الجيش الجديد.

2-د. سعيدوني، ناصر الدين، **ورقات جزائرية**، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت،2000 ص41.

3-كان قانون الإيالة يشجع الجنود على حياة العزوبة بمدهم امتيازات مادية متنوعة كالإقامة المجانية بالثكنات، والحصول على أربع خبزات يوميا دون مقابل، وشراء اللحم بثلث سعره الحقيقي، غير أنهم يحرمون منها بمجرد إقبالهم على الزواج، أنظر :

shaw (Dr). voyage dans la régence d'Alger. traduit de l'Anglais par J Mac carthy . 2éme édition. Edition Bouslama Tunis 1980. p1844.

4-د. سعيدوني، ناصر الدين، **ورقات** ....، ص 75.

5-خط همايون 1219/3374هـ المركز الوطني الأرشيف بالجزائر.

6-مجموعة 3190، الملف الأول ، المكتبة الوطنية الجزائرية قسم المخطوطات، ورقة 65.

7- خليفة حماش ابراهيم، مجموعة وثائق منشورة بالمجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، في عددين خاصين13-14، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، أكتوبر 1996.

8- Deny (J) ." Les registres de soldes des janissaires"in **R. A,** T61, 1920,pp19-96 et 212-260.

9-مجهول، **غزوات عروج وخير الدين.** تصحيح وتعليق عبد القادر نور الدين، المطبعة الثعالبية والمكتبة الأدبية، الجزائر، 1934.

10-الجديري، محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلالي بن رقية التلمساني، الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، تحقيق سليم بابا عمر، **مجلة تاريخ وحضارة المغرب**، كلية الآداب الجزائرية، عدد3، جويلية 1976، ص ص2-32.

11-ابن القاسم، محمد بن أحمد، **سيرة المجاهد خير الدين**، مخطوط رقم 2603 بالمكتبة الوطنية الجزائرية.

12-**التبر المسبوك في جهاد غزاة جزائر وملوك**، مخطوط رقم 1640 (920) بالمكتبة الوطنية الجزائرية.

13-الجزائري، محمد بن ميمون، **التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية**، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

14-الجامعي عبد الرحمن الفاسي، شرح أرجوزة الحلفاوي.

15-الراشدي، ابن سحنون أحمد بن علي، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني** تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي، سلسلة الثرات، قسنطينة، 1973.

16-خوجة، حمدان بن عثمان، **المرآة.** تقديم وتعريب وتحقيق الزبيري العربي، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980

17-الزهار، أحمد الشريف، **مذكرات نقيب أشراف الجزائر.** تحقيق المدني أحمد توفيق، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980

18-لمزيد من المعلومات راجع بلحميسي ، مولاي، **الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.

19-محمد بن محمود بن العنابي، **السعي المحمود في نظام الجنود** .تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

20-من هؤلاء نذكر : البايلرباي حسن قورصو (1556-1557) ذو الأصل الكورسيكي والداي حسن ميزومورطو الايطالي الأصل.

21-راجع كمثال كاثكارت، لياندر، **مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب**. ترجمة وتعليق وتقديم العربي اسماعيل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.

22-شالر، وليم، **مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824**، تعريب وتعليق وتقديم العربي اسماعيل ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

23- Boutin. **Reconnaissance des villes forts et batteries d'Alger.** publié par Esquer Gabriel . librairie de la société de l'histoire de France Paris. 1927.

24- Renaudot (M). **Tableau du royaume d'Alger et de ses environs de son commerce de ses forces de terre et de mer**, 2 ème édition, librairie universelle de P. Mongie Aîné, Paris, 1830.